

الأيقونات التاريخية في شعر محمود درويش

الأيقونات التاريخية التي ترد في الأبيات الشعرية والسطور النثرية تفتح بين أيدينا أبواباً للأفكار الواسعة ومجالات عديدة للتأويلات ولذا يمكن لنا أن نقول إن مجرد وجود الأيقونات التاريخية في عمل أدبي يجعله أكثر جمالا وروعة. ونرى شعر محمود درويش يجمع هذه الخصلة مع الخصال الأخرى اللازمة للأشعار العربية الرائعة .

محمود درويش (١٣ مارس ١٩٤١ - ٩ أغسطس ٢٠٠٨)

هو أحد أهم الشعراء الفلسطينيين المعاصرين الذين ارتبط اسمهم بشعر الثورة والوطن. يعتبر درويش أحد أبرز من ساهم في تطوير الشعر العربي الحديث وإدخال الرمزية فيه. في شعر درويش يمتزج الحب بالوطن بالحببية الأنتى. قام بكتابة إعلان الاستقلال الفلسطيني التي تم إعلانها في الجزائر

حياته

ولد عام ١٩٤١ في قرية البروة وهي قرية فلسطينية تقع في الجليل قرب ساحل عكا حيث كانت أسرته تملك أرضاً هناك. خرجت الأسرة برفقة اللاجئين الفلسطينيين في العام ١٩٤٧ إلى لبنان ،ثم عادت بشكل مستخفي العام ١٩٤٩ بعيد توقيع اتفاقيات السلام المؤقتة، لتجد القرية وقد صارت قرية زراعية إسرائيلية . وبعد إنهائه تعليمه الثانوي صارت حياته عبارة عن كتابة للشعر والمقالات في صحافة الحزب الشيوعي التي أصبح فيما بعد مشرفاً على تحريرها، كما اشترك في تحرير جريدة *الفجر*. اعتقل من قبل السلطات الإسرائيلية مراراً بدأ من العام ١٩٦١ بتهم تتعلق بتصريحاته ونشاطه السياسي وذلك حتى عام ١٩٧٢ حيث توجه إلى الاتحاد السوفيتي للدراسة، وانتقل بعدها لاجئاً إلى القاهرة في ذلك العام نفسه حيث التحق بمنظمة التحرير الفلسطينية ، ثم لبنان حيث عمل في مؤسسات النشر والدراسات التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ثم استقال من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير احتجاجاً على اتفاقية أوسلو. ثم أسس مجلة الكرمل الثقافية . كان يشغل منصب رئيس رابطة الكتّاب والصحفيين الفلسطينيين .

أهم قصائده ومؤلفاته

أثر الفراشة (يوميات ٢٠٠٨)، في حضرة الغياب (نص ٢٠٠٦)، كزهر اللوز أو أبعد (ديوان ٢٠٠٥)، لا تعتذر عمّا فعلت (ديوان ٢٠٠٤)، حالة حصار (شعر ٢٠٠٢)، جدارية (قصيدة ٢٠٠٠)، لماذا تركت الحصان وحيداً (قصائد ١٩٩٥)، ذاكرة للنسيان (نصوص نثرية ١٩٨٧)، الكتابة على ضوء البندقية (شعر)، العصفير تموت في الجليل (شعر)، أحبك أولاً أحبك (قصائد

١٩٧٦)، أوراق الزيتون (شعر)، شيء عن الوطن (شعر)، عصافير بلا أجنحة (شعر)، جندي يحلم بالزنايق البيضاء (شعر)، يوميات جرح فلسطيني (شعر)، آخر الليل نهار (شعر)

متى يقتبس الشاعر الأيقونات التاريخية ؟

هذا السؤال والبحث عن جوابه يسوقنا إلى نقطة مهمّة جدًا هي أن الشاعر حينما يقرض ويقول الشعر عن فلسطين مسقط رأسه وموطنه الأصلي والأول ينقاد إلى استخدام الأيقونات التاريخية فلا يترك شخصًا تاريخيًا هجر موطنه لسبب ما ، إلا وقد اقتبس تلك الأيقونة في شعره ويجد تشابهاً لها في شخص الشاعر فيقول أنا ذاك الرجل . هكذا تمثّل بين أيدينا تماثيل اتخذها الشاعر من قلب التاريخ مثل آدم واسماعيل ويوسف .

أهمّ الأيقونات التاريخية من شعره

(أ) آدم

الأيقونة التاريخية "آدم" وردت في شعر /أحد عشر كوكبا قاله الشاعر في ذكرى مرور خمس مائة عام على سقوط غرناطة :

هذه الأرض ليست سمائي
ولكنّ هذا المساء مسائي
والمفاتيح لي ، والمآذن لي ، المصابيح لي
وأنا لي أيضا
أنا آدم الجنّتين
فقدتهما مرّتين
فاطردوني على مهل
واقتلوني على مهل
تحت زيتونتي مع لوركا
أنا واحد من ملوك النهاية
وأنا واحد من ملوك النهاية
أقفز عن فرسي في الشتاء الأخير
أنا زفرة العربي الأخيرة

وجد الشاعر الذي نُفي عن موطنه يميل عن ظاهرة المكان إلى ظاهرة الزمان حين يقول :
هذه الأرض ليست سمائي
ولكنّ هذا المساء مسائي

ومع ذلك لا يتنازل عن حقه التراثي لخصومه ولذا يؤكد :

"والمفاتيح لي والمآذن لي والمصابيح لي "

ثم يتقدم في القول فيشبهه نفسه بأبي البشر آدم الذي فقد الجنة مسقط رأسه ومسكنه الأول وهي مرتكز النعم ومجتمع المنن . ودرويش يتخذ هذه الأيقونة من طيات التاريخ ويرى تشابها لها بنفس الشاعر فيقول "أنا آدم الجنّتين" .

الجنة الأولى التي فقدتها محمود درويش هي الأندلس . فقدتها الشاعر قبل خمس مائة عام . ثم ضاعت الجنة الثانية هي فلسطين وكان محمود درويش حيًا يُرزق حينذاك . ثم يتوجه إلى الكتب السماوية مرّة أخرى فيقول :

"فاطر دوني على مهل

واقتلوني على مهل "

إنّ آدم الذي فقد الجنة من أجل تناول الثمرة المحظورة طرده وأخرجه الخالق منها كما نفهم من الآيات القرآنية الشريفة . فالطرد هكذا صار من عقاب فقدان الجنة . وإذا تصفّحنا العهد القديم (Old Testament) من الكتاب المقدّس (Holy Bible) نرى حكمة هي "جزء الإثم الموت" . ففي البيتين نرى الشاعر يبدي استعداده أن يتلقّى الطرد أو القتل تحقيقًا لما روي في الكتابين السماويين . أوّلا ضاعت الأندلس من قبضة المسلمين على أيدي النصارى ثم ضاعت فلسطين على أيدي اليهود فهؤلاء الخصوم قتلوهم أو طردوهم من أرضهم . واقتباس أيقونة " آدم " يوحى بأنّه لا محالة يعود إلى الفردوس المفقود في يوم من الأيام حيًا أو ميتًا .

ثم يوطد حقّه في الأندلس الفردوس المفقود حين يقول :

" أنا واحد من ملوك النهاية " . فيرى الشاعر تشابها تامًا بينه وبين الخليفة الأموي الأخير الذي هرب من مسقط رأسه بحياته باكيًا ومبكيًا ومنتحبًا .

(ب) يوسف عليه السلام

اتخاذ الشاعر الراحل أيقونة "يوسف " في أشعاره يجعل الأمر أكثر وضوحًا وجلاءً إذ كان يوسف عليه السلام يحمل جنسية فلسطين التي استوطنها شاعرنا محمود درويش هو الآخر . وهاكم الشعر :

أنا يوسف يا أبي

يا أبي إخوتي لا يحبونني ، لا يريدونني بينهم يا أبي

يعتدون عليّ ويرموني بالحصى والكلام

يُرِيدُونَنِي أَنْ أَمُوتَ لِكَيْ يَمْدَحُونِي

وَهُمْ أَوْصَدُوا بَابَ بَيْتِكَ دُونِي

وَهُمْ طَرَدُونِي مِنَ الْحَقْلِ

هُمْ سَمَّمُوا عَنِّي يَا أَبِي

وَهُمْ حَطَمُوا لِعَبِي يَا أَبِي

حِينَ مَرَّ النَّسِيمُ

وَلَاعَبَ شَعْرِي غَارُوا

وَنَارُوا عَلَيَّ وَنَارُوا عَلَيْكَ

فَمَاذَا صَنَعْتَ لَهُمْ يَا أَبِي

الْفَرَاشَاتُ حَطَّتْ عَلَيَّ كَتَفِيَّ

وَمَالَتْ عَلَيَّ السَّنَابِلُ

وَالطَّيْرُ حَطَّتْ عَلَيَّ رَاحَتِيَّ

فَمَاذَا فَعَلْتَ أَنَا يَا أَبِي؟

وَلِمَاذَا أَنَا؟

أَنْتَ سَمَيْتَنِي يُوسُفَا

وَهُمْ أَوْقَعُونِي فِي الْجُبِّ

وَأَتَّهَمُوا الذَّنْبَ

وَالذَّنْبُ أَرْحَمُ مِنْ إِخْوَتِي ...

أبت !

هَلْ جَنَيْتُ عَلَى أَحَدٍ عِنْدَمَا قُلْتُ إِنِّي :

رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ،

رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ؟؟

(ورد أقل ١٩٨٦)

فضلا عن التماثل الذي ذكرناه أنفا بين الشاعر والنبى يوسف عليه السلام يوجد بينهما تشابهات أخرى . منها :

(١) كلاهما نَفِيا من وطنهما

(٢) استوطن يوسف عليه السلام منفاه مصر . وأمّا الشاعر محمود درويش فكان أيضا يقدر القاهرة مدينة له كما كان يحسب دمشق عاصمة سوريا وبيروت عاصمة لبنان ومسقط عاصمة عمان وجنوى مدينة ساحلية بإيطاليا جمعاء مدينة له بمنزلة الوطن .

(٣) يوسف الصبي يمثل طفلا بريئا فى التاريخ حينما كان إخوته يتآمرون ويتشاورون عليه حتى أوقعوه فى غيابة الجب . وكان أكبر هؤلاء الإخوان يسمّى "يهودا" وسمّى اليهود نسبة إليه . فنرى يوسف يمثل البراء ويهودا يمثل الاعتداء . وهكذا يقول لنا الشاعر إن تاريخ فلسطين يتمحور على نقطة هي ظلم المعتدين على الأبرياء .

وعرفنا من الكتب السماوية أنّ يوسف عليه السلام يهزم بين يديه الإخوة كلهم ويتحقّق حلمه ويسجد الكواكب والشمس والقمر فى آخر القصة . وهذه الحقيقة التاريخية أيضا تدلّ على أنّ الشاعر يتربّص وينتظر راجيا فشل المعتدين أمام الأبرياء وانهمامهم .

(٣) يوشعُ بن نون

وقد أجمع المفسّرون على أنّ المراد بفتى موسى الوارد ذكره فى الآية القرآنية من سورة الكهف : " وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتىّ أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقا " هو يوشع بن نون (Joshuah) . وقد وردت قصة يوشع مفصّلة فى الأسفار اليهودية وهي تعطي ليوشع بن نون أكثر اهتماما من هارون عليه السلام وهو يمثل دور الوزير لموسى عليه السلام خلافا لما ورد فى التاريخ الإسلامى .

"لماذا تركت الحصان وحيدا ؟" ديوان ذاع صيته للشاعر محمود درويش وهو يجمع أشعارا رائعة . يحكي فيه الشاعر قصة ولدٍ ووالدٍ يخرجان من بلديهما وهما يغادرانها فنقرأ فى مستهلّ الشعر :

أسرجوا الخيلَ

لا يعرفون لماذا ؟

ولكنهم أسرجوا الخيل في آخر الليل

فيسأل الولد أباه :

إلى أين تأخذني يا أبي ؟

إلى جهة الريح يا ولدي

وما زال الولد يسأل أباه من حين لآخر ومرّة رفع إليه هذا السؤال :

لماذا تركت الحصان وحيدا ؟

لكي يؤنس البيت ، يا ولدي

فالببوت تموت إذا غاب سكّانها

ثمّ يقول الشاعر:

وكان غد طائش يمضغ الريح

خلفهما في ليالي الشتاء الطويلة

وكان جنود يوشع بن نون بينون قلعتهم

من حجارة بيتهما

وهما يلهثان على درب "قانا" (ص ٣٤-٣٥)

نطالع في الأسفار اليهودية العتيقة أنّ يوشع هذا تولّى رئاسة بني اسرائيل بعد وفاة موسى وهارون عليهما السلام ثمّ أصبح ملكا لهم وقام باعتداءات عديدة ضدّ الأقوام الأجنبية وشنّ حروبا دامية عليهم.

ومحمود درويش يرى يوشع بن نون ورث سيرة يهودا بن يعقوب واتبعه في اعتداءاته على الأبرياء. وهذه السنة السيئة التي سنّها يهودا ويوشع يقلدّها أبناؤهم الجدد فيخربون بيوت أهل فلسطين وبينون قلعتهم بحجارة منازل الفلسطينيين .

هذه المقالة لا تجمع سائر الأيقونات التاريخية التي وردت في شعر محمود درويش غير أنها أوردت ذكر الأيقونات الهامة التي استخدمها الشاعر.